ومـا زال المهـدي المنجـرة يدافع عن القـيم

قراءة في كتاب "قيمة القيم"



(*) wlOŽÚLÝ«bL× Íôu º

Ismaeli2005@yahoo.com

w½U¦ «¡e ' «º

إن موضوع التواصل هو من أهم المواضيع التي يهتم بها الدكتور المهدي المنجرة منذ مدة، فقد ألف كتابا كاملا في التواصل، وهو موضوع يحظى بالأهمية في كتاب "قيمة القيم" في مقاربة علمية لموضوع التواصل وعلاقته بالقيم باعتباره البوابة الأساسية الملامسة بشكل كبير وكبير جدا لمسألة القيم، ولقيمة القيم بدرجة أولى، إن ما يوجد عليه الوضع الحالي لأنظمة الإعلام والتواصل لا يساعد على حدوث تغيرات جذرية وملموسة، لان الدول المتخلفة لم تول اهتماما لهذا الجانب اللهم بعض المحاولات الخجولة التي تجانب دائما طرح الأسئلة الحقيقية في مجال الإعلام والتواصل. فأهمية التواصل في مجتمعات المعرفة تتجاوز أهمية الرأسمال، ودور الموارد البشرية يفوق الموارد الطبيعية، ويكفي الوقوف عند معدلات الأمية لنعي ما ينتظرنا من عمل للحاق بمجتمعات الإعلام والتواصل.

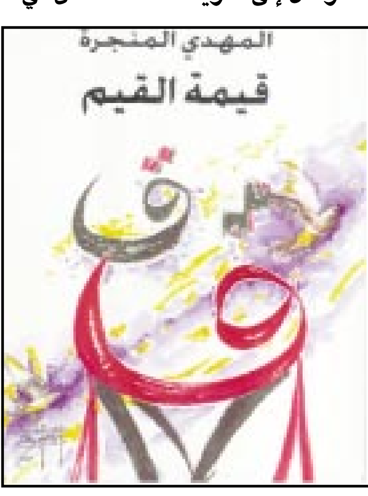
ولتجاوز الركود الكبير في مجال التواصل في الدول النامية ودول إفريقيا بالخصوص، لا بد من التفكير مليا في انجاز وتشغيل بعض المشاريع الكبرى جهويا في مجال التواصل، لان الأنظمة الاقتصادية لدول إفريقيا لا تستطيع أن تقوم بأي مبادرة لوحدها وبهذه المشاريع التي يتشارك فيها الجميع يمكن دفع محاولات الهيمنة والسيطرة التي تسعى إليها الدول الكبرى القوية اقتصاديا وإعلاميا، إن سؤال عدم البقاء في مؤخرة التطورات العلمية والتكنولوجيا دون فقدان الحرية والكرامة والروح يبقى معلقا حتى تقرر دول العالم الثالث التعامل بشكل جديد مع الإعلام وعناصره الأساسية. فقد تنبأ المهدي المنجرة قبل 15سنة أن حجم مجموع المعارف سيتضاعف مرات عديدة بسبب البروز الكبير للشبكة المعلوماتية الإنترنيت، ولم ينتبه احد إلى هذا التنبؤ، وهو ما أصبح واقعا الآن ولا ينكره إلا جاحد، فالإنترنيت يعتمد على المعلومة، والتي يعتبرها المنجرة الوسيلة والوحيدة لتحرير الناس ومساعدتهم على الاعتماد على النفس، وفي نفس الوقت فهي وسيلة ناجحة في يد الدول المهيمنة لخدمة مشروع العولمة الساعي إلى السيطرة والغطرسة، كما تفعل الولايات المتحدة الأمريكية حاليا فبآلتها الإعلامية المتوحشة وسلاحها المدمر واديولوجيتها المريضة تريد السيطرة على العالم، والسير به إلى المجهول الذي يعرفه احد. لكن على أمريكا وحلفائها أن تعرف أن الدول تتغير في شكلها وان العالم يعرف انقلابا شاملا... طبيعته ستستفيد بخلقه من جديد كما يقول عالم الإجتماع العربي الكبير عبد الرحمان بن خلدون، خلق إذن من جديد بواسطة قوة الفكرة وقوة القيم الحقيقية الكونية التي تسعد جميع البشر بعيدا عن فكرة القوة السائدة الآن في هذا العالم الذي يشهد خللا عقليا أصاب شماله وجنوبه ونبذ الحوار والسلام، مما جعل مصير العالم في كف عفريت، لن ينقذه إلا إعادة البناء من جديد وفق عملية تواصيلة تحترم قيم الآخرين وتسعى إلى التواصل معها في جو يسوده السلام والمحبة والقيم الكونية المشتركة.

إن الإنسان هو محور التطور و التخطيط و الاستقلال الذاتي ، لذلك تولي له الدول المتقدمة الأهمية القصوى ، فيما نشهد إهمالا شديدا له من طرف الدول المتخلفة ، فلا غرابة أن نشاهد هجرة جماعية للأدمغة و استنزافا مهولا للثورة البشرية لهذه البلدان الجاهلة، قضية هجرة الأدمغة من المشاكل التي تورق بال الدكتور المهدي المنجرة منذ مدة ليست بالقصيرة، لأنه يعتبرها كارثة بكل المقاييس مستشهدا بأرقام ضخمة لعدد لعقول المهاجرة التي يستفيد منها الغرب و تخسر بسببها الدول المصدرة لها ملايير الدولارات، أدمغة إذن تهاجر لان دولها لا تجدد معارفها، فعدم تجديد المعارف يؤدي مباشرة إلى البحث عن فضاءات أوسع تتجدد فيها المعرفة، و لا تكون هذه الوجهة غير الدول الكبرى المتقدمة، فعلى الدول المتخلفة أن تعلم مدى جهلها كما يقول الرئيس الفرنسي دوكول. إن التحدي هو إيقاف هذا النزيف الكبير للعقول المهاجرة عبر الاهتمام بالمستقبل و انجاز دراسات مستقبلية تجعلنا نعرف إلى أين نسير ، كما أن نشر الحرية و الديمقراطية عامل أساسي لخلق جو من التمسك بالذات المعنوية و توفير الكفاءات للوطن.

الحديث عن القيم و قيمة القيم ، الشمال و الجنوب، لا يمر بالطبع دون الحديث عن الإسلام و التساؤل حول مستقبله في أوروبا باعتبارها المنطقة التي يتواجد فيها اكبر عدد من المسلمين من جميع أنحاء العالم، فالمهدي المنجرة يتحدث بلغة المتيقن أن الإسلام يتطور و سيتطور في أوروبا، و ذلك راجع لعوامل عدة أبرزها وضعية الإسلام في العالم حاليا، مشيرا إلى أن عدد المسلمين في أوروبا مستمر في التزايد مما خلق حالة من الخوف تحولت من خوف من الكثافة السكانية المرتفعة للعالم الإسلامي في السابق، إلى الخوف من المهاجرين الوافدين بكثرة على أوروبا في السنين الأخيرة، ما جعل بعض الدول الأوربية و على رأسها فرنسا تفكر في إنشاء هوية خاصة بمسلميها ، و هو ما ترجم في السنين الأخيرة إلى خطوات عملية تمثلت في تأسيس مجالس للمسلمين في أوروبا و الدول الأوربية كل على حدا . إذن فالمشكلة عند المنجرة ليست في مستقبل الإسلام ، بل هي في مستقبل المسلمين في أوروبا.فهو يعتبره جزئيا في أيديهم شريطة أن يحترموا قوانين البلدان التي يقطنون فيها ليبقى التسامح المتبادل، حاضرا و مستقبلا هو ألحل من اجل البقاء.

في الجزء الثاني من "قيمة القيم" ينتقل المهدي المنجرة للحديث عن القيم وعلاقتها بالخلق و الإبداع ، متسائلا في البداية عن إمكانية الوصول إلى ثقافة كونية جديدة، فهو لا يعتقد بوجود ثقافة كونية منسجمة لأنها ستكون نهاية الثقافة و نهاية الكون ، إن ما هو أكثر كونية فيما يخص الثقافة عند المنجرة ، هو التنوع أولا ، التنوع داخل الثقافة الواحدة حيث لا يوجد ثقافة أممية موحدة ، فالتنوع أولا قبل الحديث عن أي شئ آخر، وبعد التنوع تأتي الحرية و الحرية بمفهومها الواسع الذي يشمل إشباع جميع الحاجيات الاقتصادية و الاجتماعية و التنوير الثقافي و الوحي، إذن فالكونية و التنوع متلازمان، وبدون ثقافة دقيقة لن تكون هناك ثقافة شمولية، حيث تسمح هذه الأخيرة للفرد بالاختيار وتجعل التواصل الثقافي في الصدارة.

في ظل الفجوة الصارخة بين الأغنياء و الفقراء يدعوا المهدي المنجرة إلى التشارك و التقاسم، فالمشاركة بالمفهوم التربوي عند المنجرة هي أولا اقتسام ما لديك بتطبيق فكرة تقديم قطعة من خبز لجائع يموت جوعا بجانبك و أنت تأكل .و إعطاء بذلة من ملابسك الفائضة لمن يشعر بالبرد، و يجب التوصل إلى تقوية هذا التضامن في



المكان، مع المشاركة على مستوى التعلم، تعلم يؤدي إلى تشارك حقيقي لا يقصي أحدا ويقلص من حجم الهوة بين الأطراف المتباينة اقتصاديا و اجتماعيا و ثقافيا. إنها إذن أفكار قوية و عملية و منطقية، على العالم المتخلف أن يلتفت إلى ما يقوله الباحثون والعلماء من أمثال المهدي المنجرة، فللأسف الشديد منذ مدة و الدكتور المنجرة يتحدث عن مواضيع شتى يجب الوقوف عندها مليا إذا أردنا مستقبلا مزدهرا و خاليا من الأمراض التي كبلتنا منذ زمن بعيد ولكن لا حياة لمن تنادي.

و من المواضيع التي تساعد القيم على الإبداع و الابتكار في السينما التي اعتبرها الدكتور المهدي المنجرة ضرورية و أساسية في التعبير عن المشاعر والأحاسيس والهموم التي تواجه المجتمعات، فالسينما في نظر المنجرة لا تقيم وزنا للمرئي، والسينمائي الحقيقي في نظره هو الذي له رؤية و له خيال، و هو الذي يحول هذا اللامرئي لنا إلى المرئي على الشاشة ، و من جهة أخرى، فان المربي يجد نفسه أمام مهمة مستحيلة، لكن لو كان باستطاعته أن يتعلم رؤية اللامرئي، و لو كان بإمكان السينمائي أن يبذل المزيد من المجهودات ليجعل اللامرئي ممكنا، لتوصلنا إلى تحقيق المعادلة سينما / تربية. فما يريد المنجرة قوله هو ضرورة أن تقوم السينما بدور معين في التربية، لكي تصل إلى أهدافها السامية، فلا حاجة لنا بسينما لا تقوم بهذه العملية، ففي الغرب توجه السينما دائما رسائل إلى المجتمع، و تعمل على توجيه فئات من المجتمع أو المجتمع بكامله لكي يقوم بأمور معينة، أو يحافظ على قيم محددة، المهم أن السينما تقوم بمهمة معينة تساعد على الوقوف على معضلات و مشاكل يعاني منها مجتمع بعينه، لأنه كما يشير المنجرة إلى ذلك لكي تجعل دولة ما تلبي طلباتك ورغباتك فيجب أن تقوم بجلبها و انجذابها ولا يكون هذا إلا بالسينما ووسائل التواصل الأخرى، والتي تعمل على تقديم صورة جميلة و مميزة عنك و عن قيمتك، و ازدهار الثقافة يعتمد على هذا، و هو ما نراه في الدول الغربية و على رأسها أمريكا، فالقائمون على السينما يوظفون دائما ما يقع في بلدانهم و الخارج و الظواهر الجديدة التي يواجهونها في أعمالهم السينمائية، لكي يضغطوا على حكامهم لتغيير سياسات أو تقديم تعويضات أو التراجع عن مشاريع ليست في مصلحة الشعب و الوطن، كما يوظف هؤلاء السينما للقيام بالتربية فنراهم يتحدثون عن سينما متعددة الأنواع و الأشكال و التوجهات، انه بشكل بسيط توظيف السينما لخدمة القيم و الدفاع عنها و ممارسة الضغط لعدم المساس بها، و هو ما نفتقد إليه في دول العالم الثالث، دون أن تظهر بوادر لتغير الأسلوب المريض في العمل السينمائي الحالي.

في الجزء الثالث من كتاب قيمة القيم يلاقي المنجرة بين القيم و الذاكرة، وكيف لهذه الأخيرة أن تساعد على الدفاع عن القيم و الحفاظ عليها لكي لا تتعرض للضياع والإندثار، و قد حاول أن يسترجع ذاكرة مجموعة من الفنانين الكبار الذين تأثر بهم و بفنهم، و هي شهادة في الحقيقة هي أوسمة على صدور هؤلاء الفنانين الأحياء منهم والأموات، فإذا لاحظنا قائمة الذين احتفى بهم المنجرة في كتابه ندرك للوهلة الأولى أن الجانب الفني الراقي لا يقل أهمية في شخصية المهدي المنجرة عن الجوانب الأخرى الاقتصادية و الفكرية و غيرها فهو المولع بأغاني سيدة الطرب العربي أم كلثوم، و أغاني كبار الفنانين المغاربة الذين غنوا للقيم و الوطن و الحب و كل ما هو جميل وأصيل.

فعلا إن المهدي المنجرة يملك أذنا موسيقية راقية فلا غرابة أن نجده يتحدث بكثير من الإعجاب عن الفنان الكبير الأستاذ الراحل منير بشير عازف العود العالمي، والذي قال فيه المنجرة بأنه حارب الكذب بعوده، و بعوده ازداد الجمال جمالا و الحب شوقا، شوق حمل المنجرة لاسترجاع ذاكرة عملاق من عمالقة الفن المغربي انه الراحل الكبير "محمد فوتيح" الذي يبقى في نظر المنجرة اكبر من مجرد موسيقي أو مطرب، إذ أن صوته ترك بصماته في تاريخ وذاكرة جيل بأكمله لم يكن ليظل بعيدا عن الإبداع وعن الفن و الموسيقى القائمين على الالتزام النضالي وراء رؤية جماعية، فهذا الكلام في حق محمد فوتيح يحمل هذا الوطن مسؤولية الاهتمام بفنانيه و رد الاعتبار للذين نسيهم أو تناساهم من أهل الفن و الجمال و الحب. إلى جانب محمد فوتيح يتذكر المهدي المنجرة المايسترو الكبير محمد بلعربي التمسماني و الذي أمضى حياته كلها باحثا عن التناغم والجمال، لذلك فهو مخلد بما ترك مثل باقي عظماء الفنانين في هذا الوجود، لقد تحدث المنجرة عن الذاكرة الملتزمة النزيهة التي دافعت عن القيم عبر شخصيات عظيمة سيتذكرها دائما بجديتها و تميزها الكبير، إن المهدي المنجرة يطلق صرخة مدوية من أجل الاهتمام بهؤلاء الأشخاص الذين رسموا تاريخا من الفن و الجمال و النضال الباهر والذين مهما قلنا في حقهم لن نوفيهم ما يستحقون.

إن الاهتمام بالذاكرة من أساسيات المهدي المنجرة حيث يلخص نظرته إليها في قوله " أن أنوه بأهمية التذكر / الذاكرة ?و هي كلمة تكررت في ما يقرب من ثلاثمائة موضع في القران ?في ثقافة الشعوب. و إنني لأزيد اقتناعا بتوالي السنين، بأن احد العلامات الدالة عن التخلف المتمثل في قلة الاهتمام بالذاكرة، الفردية و الجماعية على حد سواء، فالتخلف هو تكريس لفقدان الذاكرة، التي تجعلنا ندير الصفحة لأهون الأسباب، سعيا إلى المحو و النسيان، و طمعا في التحكم في الحاضر، في غير اعتبار للأمس و لا انشغال به. و الحال انه بانتفاء الذاكرة ينتفي التراكم و يستحيل التعلم. و الذاكرة مخيفة لأنها تقتضينا تقديم الحسابات للتاريخ و نحن نعاني تأخرا جسيما في هذا المضمار.

يختتم المهدي المنجرة كتابه القيم بالتحذير من خطورة إرهاب الدولة الذي يعتبره اخطر أنواع الإرهاب و أصعبها على الإطلاق، متفائلا في الوقت ذاته بمستقبل المغرب، لأنه بالإرادة و المعرفة يمكن رفع الظلم و الاضطهاد، داعيا إلى الاهتمام بالدراسات المستقبلية لأنه بواسطتها يمكن أن نتوفر على نظرة علمية و خطة رصينة تجعل مستقبلنا أحسن من حاضرنا . كما عرج بالحديث عن حرب إسرائيل ضد لبنان معتبرا إياها حلقة ضمن سلسلة حروب تشنها القوات الظالمة ضد حاملي القيم غير اليهودية و المسيحية ، معتبرا حماس و حزب الله هما الضمير الحي للدول العربية لأنهما استطاعا أن يواجها بقوة الإيمان عملية تدميرية واسعة للقيم، والتي هي رأسمالنا جميعا في ظل تخاذل رسمي عربي و هوان لم يسبق له نظير.

كما اعتبر المهدي المنجرة منظمة الأمم المتحدة منظمة ميتة و لا حول لها ولا قوة، لأنها أصبحت في يد دول الاستكبار العالمي، تفعل بها ما تشاء مشيرا إلى خطورة هذا التحول الذي يؤسس لعالم الظلم و الجبر و الطغيان. و كخاتمة لهذه القراءة المتواضعة نورد قولة لمهدي المنجرة تجمل موضوع القيم في قوله: " ينبغي أن ننظر إلى مسالة نظم القيم على أنها مادة ذات أولوية حتى نستطيع أن نبين بان الأزمة الحالية بين الشمال والجنوب لا يمكن تجاوزها فقط من خلال وعود تعديلية. و الواقع أن الأزمة تؤثر على النظام بأكمله، و هكذا فان أي حل سيتطلب إعادة النظر في الأهداف و الوظائف و البنيات و يستدعي هذا كذلك إعادة توزيع للقوة و الثروات و الموارد بحسب القيم و المعايير التي أدت إلى انهيار النظام الحالي.

إن كتاب " قيمة القيم " لا يخرج عن كوكبة كتب المهدي المنجرة المتميزة، وهو بحق كتاب جدير بالقراءة لما فيه من أفكار جدية و مقترحات عملية وعلمية، و لما لمؤلفه من تاريخ عريق في النزاهة و الاستقامة و النضال و الدفاع عن قيمة القيم.

(*) كاتب و باحث مغربي.